التراث الزراعي عند العرب

الدكتور يوسف عز الدين

(عضو المجمع)

كان العالم كله يعتمد اعتماداً كليا على المنتجات الزراعية وكانت حضارة الانسانية الأولى قائمة على الزراعة التي تعتمد على المياه والأرض الخصبة وقد حبانا الله تعالى في وطننا العربي بكل ما يتمناه الانسان من وفرة في المياه وخصب في الأرض وقد نشأت الحضارة القديمة في العراق ومصر واليمن والشام ومنها انتشرت الى العالم بفضل الزراعة .

ولأهمية الزراعة في التاريخ القديم عزا الفلاح في العراق ومصر تعلمها واجادتها الى الآلهة التي علمتهم أساليبها وصناعة أدواتها وأسلوب الحراثة والفلاحة والحصاد وقد خصصت شريعة حمورابي جانباً منها للزراعة والري. والطريف أنها وضعت عقاباً لمن يعذب الحيوانات والماشية . ومن هذين القطرين تعلم اليوناني الزراعة وقد تحدث عنها هيرودتس واسترابون ووصفا أساليبها ومقدار نجاح الزراعة وتقدمها في العراق ومصر .

وقد برع العرب بالزراعة والصناعات التي تحتاجها كأدوات الحراثة والدراسة والتذرية والارواء . وقد بقي الشرق رائدا من رواد الصناعة الزراعية ففيه ازدهرت جنائن بابل وجبال اليمن وغوطة دمشق ووادي النيل . ولما دخل

---

* محاضرة القيت في كلية الزراعة ، جامعة الملك سعود ، الرياض في ٢٤/٥/١٩٨٣ المصادف ١١ رجب الاصم ١٤٠٣ هـ .

العرب الأندلس نقلوا معهم فنون الزراعة التي طورت حياة الاندلس وأثرت أهله بالخير والحضارة ومن الطريف أن يحدثنا ابن الفقيه الهمذاني عن تطور الزراعة وتقدمها واختلاف الاثمار في الانتاج الزراعي فيقول في (صفة جزيرة العرب) إن أنواع العنب كانت أكثر من عشرين صنفاً وقال الفقيه الهمذاني زاويا عن محدث (انه يعرف بمدينة السلام نيفا وسبعين نوعاً من التفاح ثم عدها وتبسم أخو المتحدث ثم قال كذا وكذا زيادة على ما قال أخوه بنحو اربعمائة نوع وتسعة أنواع ...) وهو دليل على اهتمام الزارع والفلاح بالأرض والاشجار واستنبات أنواع جديدة . وقد أنعم الله على الانسانية كلها بأنواع كثيرة من النباتات والاشجار فقال في محكم كتابه (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان(١) دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (٢)

وقال تعالى :

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) (٣) .

وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم على الزراعة وحث على ممارستها فقد قال : (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان الا كان له به صدقة) ومن يدرس الصحاح والمسانيد يجد الأحاديث النبوية الشريفة كثيرة في هذا الصدد .

(١) القنوان قال ابن عباس هي العراجين – الخضر الطري الغض المتراكب كالسنابل في الحنطة والشعير .
(٢) الانعام : ٩٨ .
(٣) يس : ٣٣ ، ٣٥ .

كما حرص الرسول الكريم على إحياء الارض الموات وجعلها لمن احياها . وقد سارت الدول الاسلامية في ضوء هذا طوال حياتها فجعل عمر بن الخطاب الارض لاصحابها وحرمها على الفاتحين ليستمر اصحابها في زراعتها ، وقد كانت الدولة تساعد الزارع وتوفر له المتطلبات الضرورية للارض .

فلو قرأنا كتاب الخراج لأبي يوسف والأحكام السلطانية للماوردي وغيرها من كتب التراث الإسلامي التي تتحدث عن الزراعة لوجدنا أنظمة الزراعة في الإسلام تحث على تشجيع الفلاح فهي لا تأخذ الخراج من الأرض إلا مرة واحدة وإن زرعت مرات عديدة وتعينه متى أصابه الضرر أو أصيبت زراعته بالتلف أو قضت عليها الآفات والحشرات وما كانت تطالبه بضرائب عن العلف والبقل والخضروات والقطن والكتان .

لذلك ازدهرت الزراعة وتنعم الناس بالخيرات بعد أن أخذت الدولة الاسلامية على عاتقها حفر الانهار والترع وبناء الجسور والقناطر وبلغ نظام الري في الدولة الاسلامية الذي ساد الشرق والغرب مرحلة من دقة الهندسة وإحكام الصناعة مازال مضرب المثل فكانت بعض الانهار تعبر نهر دجلة إلى الضفة الاخرى بعبّارات محكمة الهندسة واتخذت بعض هذه الانهار أداة لنقل البضائع والمواد الأولية والزراعية الى المدن المختلفة .

ثم ان الدولة كانت مسؤولة عن تنظيف الانهار وكريها وتخليصها من الاوشاب والاوساخ والاعشاب وصيانتها لتكون المياه سريعة الجريان ولتسهل مهمة الزراع والفلاح .

وكان الناظر إلى اراضي العراق من بعيد يراها سوداء من كثافة الخضرة حتى سميت بأرض السواد فما تخلو الارض من شجرة أو حقل أو بستان أو حديقة . لأن وسائل الري كانت متقنة ووصول المياه كان سهلاً .

وهل ينسى التاريخ الزراعة القديمة وأسلوب ري الجنائن المعلقة .

التأليف والمؤلفون :

وقد ألف العرب عدة كتب في الزراعة والفلاحة دلت على الاسلوب العلمي والعملي الذي صاحب هذه المؤلفات وقد طبع بعضها ومازال بعضها مخطوطاً وقد تحدثت عن النباتات بأنواعها وزراعتها وغرسها وفسائلها وبذورها وأساليب التقليم والتلقيح والتشذيب وخصصت أجزاء للازهار والرياحين دلت على مقدار رهافة الذوق وحسن الاختيار . وبحثت هذه الكتب في الارض وانواعها وأشكالها وألوانها وخصائص هذه الالوان والانواع وتحدثت عن السماد وأنواعه الحيواني والنباتي وفوائد الاسمدة ومقاديرها لكل شجرة أو نبتة أو زهرة كما وجدنا الزراع يفرقون بين أنواع المياه وأثرها في سقاية النباتات مثل مياه الامطار والآبار والعيون والانهار دون أن يملكوا الوسائل التقنية أو المختبرات التي وجدت في هذه القرن .

وفي الأندلس وصل علم الزراعة مرحلة متطورة جراء التجارب العملية التي كان يجريها الفلاح المسلم على أنواع الاشجار والازهار ولم يكتف بما كان لديه من أشجار وبذور وانما استورد بذوراً لنباتات لم تكن تزرع في الاندلس جلبها من الشرق الأدنى وأخذ يقارن بين اصنافها المختلفة وخصائصها المتباينة واهتم بالنباتات الطبية اهتماماً واضحاً .

وقد خصص عبدالرحمن الناصر حديقة خاصة بزراعة النباتات الطبية وأرسل في طلب بذورها من كل مكان في العالم وزرعها في هذه المزرعة وتتبع نموها وراقب فوائدها وأجرى عليها الاموال للعناية بها وتطويرها .

وقد كان العلماء يرحلون من مكان إلى آخر للاستفادة من الخبرات فقد ذهب ابن البيطار من الاندلس إلى المشرق وكان يناقش العشابين والزراع والصيادلة في زراعة النباتات الطبية حتى عُيّن رئيساً للعشابين والصيادلة في مصر واستقر مع تلميذه ابن أبي أصيبعة وعرف كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .

ومن الكتب التي ألفت في الزراعة والفلاحة والحيوان مالا يمكن أن أحصره فهي ماتزال مخطوطة في أكثرها ولكن يمكن أن أذكر نماذج منها ومنها يستدل على مقدار العناية بالفلاحة واهتمام الزراع المسلم بها وبالحيوانات المختلفة التي كانت تخدم حياته .

١ــ الفــلاحة لابن البصال (محمد بن ابراهيم) سمى البصال نسبة الى زراعة البصل وطبع كتابه محققاً في تطوان سنة ١٩٥٥ وهو رائد من رواد فن الزراعة التطبيقية .

٢ــ كتاب الفلاحة لابن الاشبيلي

٣ــ الفلاحة الاندلسية لابن العوام (علي بن محمد) وقد قام بنفسه بتجارب زراعية وابحاث فردية سجلها في كتابه .

٤ــ الفلاحــة لابن الحجاج (احمد بن محمد) (٤) .

٥ــ الفلاحة النبطية لابن وحشية وهو معلمة زراعية في المياه والزراعة وأوقاتها وهندستها ولا يهمنا نسبة الكتاب بقدر ما فيه من علم .

٦ــ كتاب النباتات أبو حنيفة الدينوري طبع في لايدن ١٩٥٣ .

٧ــ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .

للقزويني

٨ــ زهرة البستان ونزهة الاذهان

لأبي عبدالله محمد الغرناطي (ابن حمدون الاشبيلي)

(٤) حقق (المقنع في الفلاحة) لابن حجاج الاشبيلي صلاح جرار وجاسم ابو صفية باشراف الدكتور الدوري ونشره مجمع اللغة العربية الاردني .

وامتاز الكتاب بالتجربة والتطبيق وشدة الملاحظة فقد كان المؤلف يذكر تجاربه الخاصة ولم يكتف بذلك انما أراد الاستزادة من معارفه فذهب الى المشرق . كما نذهب نحن الى أمريكا والغرب — واحتك بالزراع بل وصل الى بحر الخزر وعاد الى الاندلس مطبقاً جميع ما شاهده واستفاد كثيرا من سفراته وللأسف لم يجد الباحثون نسخة كاملة منه فما زال الكتاب كثير المعلومات يستفيد منه الزارع المعاصر وبخاصة دراسته للأرض والماء والبذور والفسائل والسماد بأنواعه الحيواني والنباتي وزراعة البقول والخضر والأزهار والرياحين .

ولم يقف التأليف عند فترة من الزمن أو عهد من عهود الاسلام انما وجدنا من ألف متأخراً مثل عبدالغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣هـ وطبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٧٧ وقد سماه (كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة) والكتاب تجربة حقلية بأسلوب علمي اتخذ فيه وسيلة اللمس والشم والذوق والنظر اذ هي أدوات المختبر العلمي للفلاح وبها يختبر الوسائل والأدوات معرفة الأرض وغرس الشجر والزهر والتقليم والتطعيم ويفحص الاختلافات بين البذور والبقول .

وقد وجدت بعض حكام اليمن يؤلفون في الزراعة والبيطرة مساهمة في نشر الوعي الزراعي وتثقيف الزراع فقد ألف معهد الدين عمر بن يوسف الرسولي المتوفى سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) عدة كتب في الزراعة والطب والفلاحة فقد ورد في ترجمته أسماء الكتب التالية :

١— الثقافة في علم الفلاحة .

٢— الجامع في الطب .

٣— ملح الملاحة في معرفة الفلاحة .

٤— المعتمد في الادوية المفردة .

٥- المغني في البيطرة (٥) .

وقد ألف عباس بن علي بن داود (الملك الأفضل) المتوفى (٧٧٨ هـ - ١٣٧٦ م) . (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ذكر فيه أنواع الأراضي والمياه والزراعة وأوقاتها والاشجار وغرسها وآفاتها وخزن الحبوب ولا يمكن أن أقف على جميع ما كتب عن الزراعة والبيطرة وتربية الحيوانات ولكنني أريد أن ألفت النظر الى ان العرب في مختلف بلادهم وعلى مستوى الطبقات قد اهتموا بالزراعة وأولوها العناية الكافية ويمكن أن نذهب الى أية مكتبة ونفحص المخطوطات والمطبوعات فسنجد صدق ما قلت .

الغرب و الزراعة :

وكل ما اتمناه ، وأنا في حرم كلية الزراعة موئل هذا الفن الاصيل ، انتقوم بجمع هذه المخطوطات والمطبوعات التي تحدثت عن الزراعة الاسلامية وتخصص لها مكانا في مكتبتها ان لم تكن قد قامت بالعمل وأطمع في تخصيص بعض المحاضرات المقارنة بين ما وصل اليه العرب والمسلمون وبين ما وصلت اليه العلوم الزراعية المعاصرة فليعرف الطلاب بأن تراثهم الأصيل لم يترك شيئاً علميا لم يدرسه ولتعود الثقة بقدرات الاجداد ثم الانتفاع بالخبرات الزراعية والعلمية القديمة في بناء زراعي نابع من تربتنا وبيئتنا والاستفادة من الغرب ومعداته وآلاته المتطورة في تطوير حياتنا الزراعية .

ولرب قائل يقول لماذا لا نأخذ الفكر الزراعي الغربي المتطور ونطبقه على الارض العربية ونترك كل ما جاء به العرب وجوابي واضح وصريح أن الفلاح العربي المسلم طبق على بيئته ومحيطه خبرته وعرف تربته واستفاد من تجربته من الهواء والماء والشمس والرطوبة كما استفاد الغربي من محيطه فيجب أن نستفيد من التجارب العربية والغربية في آن واحد لان الاختلاف واضح بين الغرب والشرق في تنوع المحصول وجودته باختلاف المحيط والتربة والمياه .

(٥) حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، تأليف عبدالله الحبشي ١٩٧٩ بيروت ص ١١٥ .

ولا ننسى أن الغرب مدين لنا بكل حضارته وفكره وتطوره العلمي ويكفى أن ندرس علم الزراعة في الاندلس فسنجدها ما تزال تستعمل الاسماء العربية بفضل زراعة المسلمين وتطور هذا العلم في بلادهم .

وكان من فضل العرب والمسلمين على الغرب ادخال الأدوية الطبية الزراعية التي تطورت فيما بعد الى التحضيرات الكيماوية لأن العرب لم يتركوا شيئاً الا ذكروه بل رسمت النباتات الطبية بدقة وثبتت ألوانها المختلفة في مؤلف (رشيد الدين الصوري) .

العناية بالحيوان :

ولم تكن الزراعة وحدها مجال عناية العرب والمسلمين فقد كان للحيوان عناية خاصة حتى عند الأدباء والكتاب حسب مصطلح اليوم لأن العالم كان واسع الاطلاع على معارف علمه موسوعيا في ثقافته فلا نعجب إن وجدنا العالم الطبيب خبيرا بالزراعة والزراع خبيرا بالموسيقى واللغة والأدب اذ لم يكن عصر الاختصاص قد بدأ ففي الحيوان نجد حياة الحيوان الكبرى للدميري والحيوان للجاحظ وعجائب المخلوقات للقزويني وسنجد العالم العربي يعنى بالأدب والزراعة والصناعة والحيوان فهو يصف الكائنات الحية في مختلف رتبها وأصنافها وأشكالها والبيئات التي تعيش فيها سواء أكانت تعيش في البر أم في الماء أو كانت برمائية وبالطبع لم تقسم حسب المفهوم العلمي الحديث فهم يرون كا ما يطير من الفراشة واليراعة والطير والخفاش وترتب حسب الحروف الابجدية ولكنهم لم يتركوا من الحيوانات والحشرات والنباتات شيئاً كالنمل والنحل والعقرب والزنبور والحلزون والاسماك وجميع أنواع الزواحف واللبائن الا أحصوها ووصفوها وذكروا فوائدها ومضارها . وبلغوا مرحلة في الدقة العلمية والوصف الباهر ما أثار الاعجاب .

وليس غريباً على الباحث المسلم أن يهتم الحيوان لانه جزء من حياته فقد ألف الجاحظ (الحيوان) وألف الدميري (حياة الحيوان الكبرى) وهذان الكتابان مطبوعان ينهل منهما كل باحث في الأدب واللغة وعلم الحيوان ولكن لا بد من أن أذكر (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني) والمؤلف من سلالة أنس بن مالك وولد في قزوين وغلبت عليه شهرة البلدة وقد سافر الرجل الى الشام والعراق واصبح قاضيا في العراق زمن المستعصم وبذلك نجد في بحثه صدق القاضي وامانة المؤمن في تأليفه .

فقد درس حياة النبات والحيوان ورتب مؤلفه حسب البيئة التي يعيش فيها الحيوان فحيوانات الماء تختلف عن حيوانات البر وبالطبع لم يأخذ بنظرة العلم اليوم ولفت نظره حجم الحيوان وحركته وطيرانه لذلك عد الخفاش واليراعة من الطيور وحسب الحوت والاسماك من نسق واحد لانه رتب حسب المعرفة القديمة .

ولكن الدقة العلمية في إبعاد الاساطير والخرافة القديمة خير شفيع لـه في البحث فهو لم يترك حيوانا من الحيوانات أو حشرة من الحشرات سواء أكانت من الزواحف أو اللبائن الا ذكرها .

وسارت هذه الدقة في كتابه لما تحدث عن الاشجار والنباتات والأزهار .

في أوروبا :

وعندما درست في أوربا وجدتها تتسع بخيرات كثيرة من الاطعمة والمزروعات النادرة وتلتذ بمختلف الفاكهة والخضروات مع أنها لم تكن تعرف شيئاً عنها قبل الاحتكاك بالمشرق العربي والتراث الزراعي الاسلامي فالرز والسكر والقطن والزعفران والنخيل والاعناب والخيار والقرع والرقي (البطيخ الأحمر) والبطيخ والليمون والبرتقال والخوخ والمشمش الى آخر القائمة الكبيرة من مفاخر هذه الفاكهة والنباتات لم يكن يعرفها الأوربي البدائي ولم يكن

يسمع بها لانها أنواع لم يرها ولم تقدر مخيلته على تصورها وقد بقيت بعض هذه الأسماء كما جاءت من اللغة العربية أو بعض الامالات والتحريف الذي يناسب اللغة التي نقل اليها .

وقد كان للحروب الصليبية فضل على الغرب فقد حملت روح الحضارة الاسلامية الى أوربا وكان للأندلس أثر كبير في نشر الثقافة الاسلامية الى جانب الفن الزراعي . ومكتبة الاسكوريال خير شاهد على ما وصل اليه فن الزراعة ففيها كثير من كتب الزراعة منها كتاب ابي زكريا الاشبيلي الذي يقف أمام دقة علمه وسعة اطلاعه وتجاربه العلمية الزراع المعاصر مدهوشا لما فيه من نظرة عميقة وتجارب زراعية ناجحة ومعرفة واسعة بأساليب الزراعة وطرق الري وبناء القناطر وحفر الجداول وتصريف المياه الزائدة وهي أهم خطر يتهدد الاراضي الزراعية في الوطن العربي هذه الأيام .

جمال الاندلس في الشعر :

وقد سعدت بزيارة معالم الاندلس وهالني منظر تلك الحدائق الناضرة والزهور اليانعة بألوانها الرائعة وجمال التنظيم وحسن التنسيق الذي يدهش السائح والزائر والمقيم من فتنة هذا الجمال النشوان ودقة بناء المهندس واحكام البناء وتناسق التصميم وبراعة السطرة على مجاري المياه للارواء أو للزينة في في النوافير والسقي .

ورغم كر السنين واختلاف العصور فقد بقيت هذه الحدائق والبساتين شاهدا خالدا على براعة المهندس المسلم ودقة الفلاح واصالته في عمله وبعد نظر في الزراعة .

وليت شعري كم أوحى هذا الجمال من قصائد خالدة جميلة اللحن رقيقة الاسلوب ساحرة العبارة حلوة اللفظ وخلدت مشاعر جدنا الفلاح وأحاسيسه وسجلت عواطفه الصادقة حتى خصص لها الأدب العربي فرعاً من فروعه

سماه شعر الطبيعة وجدنا فيه شعر ابن زيدون وابن هانئ وابن عبد ربه وغيرهم من شعراء المشرق والمغرب الذين أوحت لهم ازهار الرياض وخرير الجداول وهبوب النسمات العذبة جميل الشعر وعذب القصيد .

فمن زار تلك الديار وله حسّ شاعر لا بد أن ينظم فيها أحاسيسه وكتب أجمل أدبه متأثراً بما حباه الله من فتنة وسحر ولنقف عند بعض هذا الشعر الجميل لنترحم على أجدادنا الفلاحين في الاندلس الذين زرعوها واحسنوا زراعتها فقد قال ابن زيدون :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله ... كأنه رق لي فاعتلّ اشفاقا
والروض عن مائه الفضيّ مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها ــ حين نام الدهر ــ سرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى بنافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبّه منه الصبح أحداقا

وقال ابن حمديس :

في حديق غرس الغيث به ... عبق الارواح موشى البطاح
تعقل الطرف ازاهير به ... ثم تعطيه ازاهير صراح

وقال ابن خفاجة يصور الطبيعة بجمالها النشوان وزهو البهاء الريان والفتنة الساحرة :

وكمامة صدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور اقاحه ... اخلاف كل غمامة مدرار

نشرت بحجر الارض فيه يد الصبا   دار الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غض النقا وتقلدت   حلي الحباب سوالف الانهار

وكأن الشاعر يتحدث مع هذا الجمال الزاهي الذي زُيّن بالأزهار والفتنة وبهره سحر المنظر ، وكيف لا ينبهر أصحاب الذوق الرفيع والاحساس العميق .

وقال في حديقة :

وصقيلة الانوار تلوي عطفها   ريح تلف فروعها معطار
والنور عقد والغصون سوالف   والجزع زند والخليج سوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى   وشدا الحمام وصفق التيار

انها فتنة الطبيعة في زهو الازهار واختيال الاشجار وفضل الفلاح العربي الذي خلدها للانسانية متعة وسحراً .

ترى الحديقة ترقص طرباً وتلوي عطفها لمداعبة الرياح لها فتلف أغصانها بالرائحة العبقة . فغنى الحمام وصفق التيار ورقص الفنن ، انها نعمة الله وفضله على عباده بقيت تذكر فضل الفلاح العربي على كل سائح زائرها وتمتع بجمالها.

وقد الهمت الطبيعة الزاهرة الساحرة في الاندلس احمد شوقي أجمل شعره وأرقه في قصيدتين مشهورتين فهو يخاطب (نائح الطلح)

لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ   ولا أدكارا ولا شجوا افانينا
تجر من فنن ساقا الى فنن   وتسحب الذيل ترتاد المواسينا
آه لنا نازحي ايك بانـدلس   وان حللنا رفيفا من روابينا

وقد مررت بالاندلس فجعلت مني شاعرا نظمت فيها أبيات ترجمت الى اللغة الاسبانية والانكليزية فكانت سبباً في أن تكون احدى هذه القصائد مقدمة لترجمة كبيرة عن شاعر الاندلس الكبير (لوركا) (٦) قلت :

(٦)

هذي مروج بـلادي الخضـر ... قـد تاه في افيائهـا السـحر
والماء عـذب في تـدفقـه ... عبـر القرون مرقرق غمـر
غنت بـه حمـدونـة سلفـا ... لما ازدهى في عقـدها النحر
أين ابن زيـدون ومجلسـه ... طـال الغبوق ومـا دنا الفجـر
وأخي يسيـر الى سنابلـه ... لحصـادهـا فالزرع مصفـر
وارينب هذي بمشـيتهـا ... هـذي الثريا هـذه نَـنْور
عين الجـآذر في محـاجـرها ... والله هـذا الحسن والعطـر
غـرناطة التـاريخ ذا شـجن ... حـنّي يديك فأدمعـي غـزر
ولآلئ الاحبـاب ان نشـرت ... ما ما زهـا اليـاقوت والـدر
وصحائف التـاريخ قـد خجلت ... مـذ ضاع منها المجـد والفخـر

وفي القصيدة التالية سجلت الوفاء العربي الاصيل عند الرجل المسلم العربي نحو زوجته ومقدار حبه له فقد بنيت الزهراء على اسم الزوجة وكانت من بلاد يكثر فيها الثلج فأراد زوجها أن يكرمها فغرس لها أشجار اللوز لانها عندما تزهر تبدو وكأنها الثلوج(٧) على سطح الارض ولما وصلتها تذكرت الحكاية فقلت :

من خطاه مجفـلات جاءني يسعى غريبا
بدد الصمت الرهيبـا .
لم يدُر دهري حبيبـا .
من أتاني بعد أن صرت ركاما وحجارة
عبثت أيدي زماني غارة تتبع غـارة
حاقد يبغض رمزا كان في الحب منارة
كنت رمز الأمل العذب وهمسات الأماني



(٧) بناها عبدالرحمن الناصر وحشد لها آلاف العمال يعملون فيها حوالي عشرين سنة فكانت من روائع الفن المعماري ذكرها المقرى ج ٢ .

جبل القدس شموخا ملأ الدنيا حنـــاني
قد غرسنا لهم الحب بأنغام حـــوانـي
فسقونا غصص البغض بتدمير الحيــاة .
من أتاني زائرا بدد صمت الحسرات ؟ . .

★ ★ ★

ليته جاء بكورا ومع الفجر الحبيـب
وأنا فوق سرير الفل في نسج حبيـبي
مخملـي الـدفء ما أجملـه دفء القلوب
ونوافيري جـذلي بين كأس وحبيب
كنت قارورة أشواق والهـام وطيـب
كنت للحب مروجا عطرات كل الـدروب
أين ظلي ومياهـي
وأغاريد الطيور ؟ . .
برغم الوحي بأرض فغدا العيسي خطيبا
ألهم العارف حبـي فيغنيـه ضروبـا

★ ★ ★

أنا يا زهـراء قد جئت من الشرق القصيّ
عربيّ جاء يحدو بغناء عربيّ
ساقه الشوق لكي يستاف في هذا الندى
ويروّي ظمـأ النفس فصلى وتبتّـلْ
فجئنا فوق اريج وعلى الترب تمهـل

★ ★ ★

أنا لو استطيع قد سرت على الاجفان في شوقي العميق
وزرعت السحب ازهارا على طول الطريق

أبيض السحر كنور اللوز كالثبج الحقيقي
خالدا مثل خلودك
ساحرا سحر نشيدك

★ ★ ★

لولا جمال الاندلس وذكريات المجد العربي التايد وتألق الطبيعة يجهد الفلاح العربي الذي زرع أشجارها ونسق حدائقها لما وجدنا مثل هذه القصائد الرائعة التي سجلت نبضات الشعر والشعراء ولولا عناية الزارع العربي المسلم لما خلدت تلك الحدائق مثل جنة العريف والحمراء والزهراء انه ثمرة الفن الزراعي الأصيل . الذي حرص عليه الفلاح العربي المسلم في تلك الديار .

المكتبة الزراعية :

اهتم العرب بالعلوم في مختلف أنواعها وقد كان الكاتب المسلم دقيق الملاحظة عملي النظرة واقعياً في تسجيل ما يراه وقد سجل لنا كتباً كثيرة عن النخل والعشب والكلأ والاشجار والكروم بأنواعها وأشكالها المتنوعة ومحل غرسها واماكن تكاثرها وما تحتاجه من عناية ورعاية .

وقد اهتم بالنخلة اهتماماً واضحا لانها كانت تعطيه الشيء الكثير حتى سماها سيدة الشجر وقد حققت بعض هذه الكتب ونشرت من المستشرقين ومن العرب وتحتاج الى وقت طويل لدراستها ومن الذين اهتموا بالتأليف النضر بن شميل وأبو عمرو الشيباني والاصمعي والزبير بن بكار وابن سيده وان جاءت اكثر هذه الكتب مهتمة بالجانب اللغوي الا أنهـا أعطتنا مدى الاهتمام الواضح بالزراعة والزرع . وقد حصر الزميل الدكتور حسين نصار في دراسة شاملـة كتب النبات في بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق .

وللأسف ان المكتبة الزراعية ضاع الكثير منها في غزو المغول للعراق وفي المصائب التي صبّتها الصليبية على المسلمين في الاندلس فقد حرقت الكثير منها

وكانت تقضي على كل كتاب مكتوب باللغة العربية وينال صاحبه من العذاب ألوانا وما بقي منها قد ذكرنا جزءا منه ما زال زاخرا بكل ما يفيد الزارع والفلاح ومهندس الري ففيها تحديد لأوقات الزراعة وغرس الفسائل وشتلها وريها وسمادها ونظام هذا الري كما ذكرنا .

وأشكال الاغراس حتى دخلت الاسماء العربية في تاريخ الاندلس الزراعي وحملت المنتوجات الزراعية الاسماء العربية وبخاصة المزروعات التي لها علاقة بالطب ومالها علاقة في علاج الامراض كما اسلفنا فقد عرف الحنضل والحناء والبان والكافور والكركم والكمون والذرة والقطن والسكر والحلفاء والحرمل والياسمين والجت (البرسيم) والليف والنارنج والزعفران والسماق والسنبل والتمر والتمر هندي والقائمة طويلة جداً يمكن لمن يريد أن يتتبع هذه الأسماء العربية في اللغة الاسبانية يجدها في سهولة ويسر .

وقد بقي الفلاح المسلم رائداً من رواد الزراعة واكثار النباتات واستخراج العقاقير سواء أكان في المشرق أم في المغرب وكان له فضل كبير في استعمال كثير من هذه النباتات في الادوية الطبية . ويحاول الطب المعاصر اليوم دراسة أثر هذه النباتات التي جاء ذكرها عند ابن زهر وابن البيطار وبالفعل استعمل الطب الحديث جزءاً منها في العلاج الطبي ووجدها ناجعة ناجحة .

والطريف أني لما سافرت إلى الصين ذهبت الى الصيدلية فوجدت الصيدلاني يخير المريض بين الاعشاب التي وضعها في أدراج مرتبة منسقة وبين الادوية الحديثة وبالفعل احتجت إلى بعضها فاعتمدت على طب الاعشاب فكان أسرع أثراً وأكثر أمناً فلماذا لايقوم الصيدلاني العربي بمثل مايقوم به الصيني في وطنه وفي نباتاته ؟

إن علم الزراعة الذي يذهب لدراسته أبناؤنا إلى امريكا وأوربا ليعودوا بعدها فخورين بشهادتها ودرجاتها العلمية له أصل اسلامي عربي طورته أوربا

وزادت فيه حسب حاجتها ومحيطها وليس في الدراسة في أوربا من ضير ومن الضروري الاستفادة من النظريات الجديدة والتجارب التي اجراها العلماء ولكن المهم أن يستفيد طلابنا وأساتذتنا من العلوم الزراعية والقيام بالتجارب في أرضنا ومحيطنا والأسمدة الموجودة لدينا ونظام الري القديم في الوطن العربي لانها تلائم هذه الارض وكانت نتائج تجربة عملية طويلة .

وحبذا لو قام فريق من هؤلاء المختصين بنشر وتحقيق هذه الكتب ومقارنة هذه العلوم الاسلامية بالعلوم الحديثة وبخاصة أن بعض اجزاء من الوطن العربي لها تاريخ عريق في الزراعة مثل العراق والشام واليمن ومصر ووصلت الى مرحلة استخراج أنواع متباينة من الفواكه والاشجار فقد مر علينا أن أنواع التفاح زادت وكثرت اشكالها وطعمها وألوانها وقد حاولت أن أحصي في العراق أنواع التفاح فلم أجـدها تزيد على عدد أصابع اليـد فأين ذهبت جهـود الفلاح وتجاربه . . . ؟ وما معنى استنبات هذه الانواع الفريدة سواء كانت من التفاح أم العنب . أليست معناها وجود تجارب علمية دقيقة . وان هناك تطوراً حضاريا ورهافة في الذوق ورفاهية في العيش ولعل من الكتب التي أتمنى أن تحقق (كتاب الفلاحة النبطية) الذي قال عنه الزميل الدكتور (صالح أحمد العلي). . . انه كتاب ضخم لا يزال مخطوطا وفيه معلومات عن المحاصيل الزراعية الرئيسة في العراق وأنواع بعضها ولكنه لم يستوعب كافة المحاصيل . . . وقد ذكر ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الادوية والأغذية المحاصيل منقولة عن كتب النباتات التي سبقته والتي أُلِفَت قبله في الطب التي عثر عليها كما ذكر محمود الدمياطي في (معجم أسماء النباتات) جميع المحاصيل التي ذكرها ابن البيطار وذكر اسمها العلمي أمام الاسم العربي .

وكان الطبيب العربي يذكر أماكن العقاقير ويقوم باحصاء عام لها لكي يستفيد منها عند الحاجة فهو يعرف مكان تكاثرها وزرعها فقد حدث يونس

الصيدلاني عن ابن الفقيه الهمـــداني بأنه أحصى ما عمل من العقاقير النباتية على سواقي الأنهار وأدخلها في الأدوية التي يمكن الاستفادة منها في العلاج الطبي .

وقد ذكر ابن الفقيه بأن العقاقير والادوية كانت سببا في تخليص المرضى من العذاب الذي كان يعاني منه المريض من آثار الامراض وأوجاعها والاسقام وآلامها (التي تسببها هذه الامراض . وأثر كل نبات في ازالة المرض والكميات التي يعالج فيها وهو خير دليل على أن العرب كانوا اصحاب تجربة علمية . . . وقد قال قدري طوقان . . . ان خير ما أهداه العرب هو الاهتمام بالتجربة والحث على اجرائها مع دقة الملاحظة . . . وقد طالب جابر بن حيان من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل كل شيء مستحيل أو عديم النفع وعليهم أن يعرفوا السبب في اجراء كل عملية . .) .

ولا شك بأن الغرب وأمريكا قد وصلا الى مرحلة متطورة في الزراعة وقد اخضعت الى تجارب علمية متقدمة . بفضل الآلات الجديدة وأسلوب استعمال هذه الآلات في الري والزراعة والحراثة والحصاد واستنبات أنواع جديدة وأشكال غريبة لم تكن معروفة وقد أدخلت التقنية الحديثة عليها في تطوير أنواع البذور واحداث طفرات للحصول على نباتات جديدة تلائم البيئة الغربية وحاجات الفرد اليومية في الحجم واللون والطعم وتقاوم الامراض والآفات الزراعية وحفظ النباتات بعيداً عن الاصابة بالامراض وباطالة زمن تخزين البذور وانتخاب الانواع الجيدة منها .

وان العلم الحديث بدأ في استعمال الاشعة في تطوير أنواع النباتات والاشجار والخضروات لتلائم حاجة المستهلك وتغريه بلونها وحجمها أو شكلها الخارجي وطعمها الداخلي . والقضاء على الخلايا التي تؤدي الى النمو غير المرغوب . كما تطورت أساليب القضاء على الحشرات الضارة والآفات الزراعية التي تفسد المحاصيل أو تعيش عليها بأساليب جديدة وبطرق حديثة .

الذي أرجوه أن يكون المهنــدس الزراعي الذي تعلمعاوم الغرب واستفاد من علمه أن يستفيــد من تجارب اجـداده وبراعة المسلمين الزراع الأوائل فان هذه التجارب نابعة من حاجات البيئة ودراسة المناخ والارض والتربة جيلا بعد جيل وله ان يحكم بعدها بمقدار تطور هذه العلوم عند الغرب في سبيل تطوير الزراعة وعلم الحيوان في الوطن العربي لان حاجات الغرب الزراعية وتجاربه تتحكم فيها طبيعة الغرب من هواء وأمطار وقلة ظهور الشمس فقد استفادوا بالتجربة من آثار الطبيعة وعرفوا كل شيء عن المناخ والرياح والامطار والاسمدة والري عندما بدأوا في الزراعة . فلماذا لا نطبق نحن تجاربنا على الزراعة ؟ وأخيراً مما يثلج الصدر ويفرح النفس أن المملكة العربية السعودية قد نجحت في كثير من زراعة المحاصيل الزراعية والخضروات وبخاصة الحنطة وقد بشرنا بأن المستقبل سيكون في عون الفلاح في الاعتماد على المزروعات الداخلية والاستغناء عن الاستيراد من الخارج وتلك نظرة سليمة عميقة الجذور لأن الامة التي تستورد ما تأكل لن يكون لها مستقبل بين الامم المتقدمة . . .

وأسأل الله أن يأخذ بيد العاملين جميعهم . .

والسلام عليكم ورحمة الله

مصادر متنوعة للاستفادة منها
في البحث غير ما ذكر

١- علم الفلاحة عند المؤلفين العرب .
خوس مارية مياس بيكروبا تعريب عبداللطيف الخطيب ، تطوان ١٩٥٧.

٢- عبقرية العرب في العلوم والفلسفة .
عمر فروخ - بيروت ١٩٦٩ .

٣- العلوم العملية في العصور الاسلامية - عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٧٢.

٤- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي .
الدوميلي ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى القاهرة ١٩٦٢ .

٥- ابن البصال رائد الفن الزراعي الحديث في الاندلس .
جعفر خياط مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١٥ - ١٩٦٧ .

٦- كتاب الفلاحة لابن بصال .
جواد علي مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٦ - ١٩٥٨ .

٧- علماء العرب الاندلسيون .
محمد عبدالله عنان مجلة العربي العدد ٤ سنة ١٩٧٠ الكويت .

٨- تأثير العرب والعربية في الفلاحة الاوربية .
مصطفى الشهابي - مجلة المجمع اللغة العربية - دمشق ج ٢٦ سنة ١٩٦١ .

٩- كتب النبات حسين نصار .

مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق .

١٠- مجلة المورد العدد الرابع مجلد ٦ سنة ١٩٧٧ (عدد خاص عن العلوم عند العرب) فيه عدة مقالات منها :

١- عجائب المخلوقات عزيز علي العزي .

٢- علم الزراعة والنبات من خلال كتاب الفلاحة لابن البصال .

عادل محمد علي

٣- الهندسة الزراعية عند العرب .

سند السيد باقر الفحام



★ ★ ★